العقل والعشق في شخصيّة الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّه

الخلاص من (شرور) (العقل).. والولوج في وادي (العشق)

المرجع الديني الشيخ الجوادي الآملي *

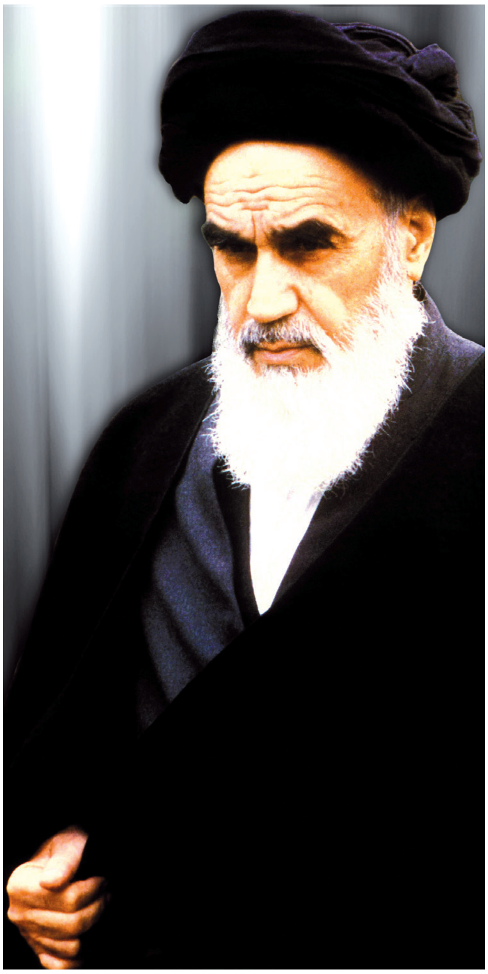

في رسائله المطبوعة باسم (بلسم الروح) يتحدّث الإمام الخميني عن (العقل) و(العشق) فيقول: «ابذل الجهد لتصل كلمة التوحيد -التي هي أعظم كلمة وأسمى جملة- من عقلك إلى قلبك، فإنّ حظَّ العقل هو ذلك الاعتقاد البرهانيّ الجازم، وإذا لم يصل حاصلُ هذا البرهان بالمُجاهدة والتلقين إلى القلب، فإنّ فائدته وأثرَه لا يكادان يُذكران. كثيراً ما يكون بعض هؤلاء؛ أصحاب البرهان العقليّ والإستدلال الفلسفيّ، أكثر من غيرهم في شَرَك إبليس والنفس الخبيثة، (أرجُلُ الاستدلاليّين خشبيّة)، وتُبدّل هذه الخطوة البرهانيّة والعقليّة بخطوة روحانيّة وإيمانيّة، عندما تصل من أُفق العقل إلى مَقام القلب، ويقبلُ القلبُ ما أثبتَه الاستدلالُ العقليّ». والحبُّ حركة قلب في خطِّ العقل، متحرّرة من أُسار العقل وقيوده، المعبَّر عنها هنا بـ (الشرور). والعشقُ تنامي هذا الخفق واشتدادُه، والضَّرَم.

ما تقدّمه «شعائر» هو بعضُ حديث الفقيه الشيخ الجوادي الآملي، عن الإمام الخمينيّ العاشق لِما اعتقدَ به العقلُ، ليُسلِّط الضوء على جوهر (خطّ الإمام) وهو جوهر الإسلام، «وهل الدين إلا الحُبّ؟»، فمن لم يعرف إلا التعامل مع الاعتقاد، لا يُمكنه أن يعرف معنى وجوب حبّ الله تعالى ورسوله وأهل البيت عليهم السلام.

كان الإمام الخمينيّ مجدِّداً في الثقافة والفكر، وقد تجلّى نهجه هذا في قيادته فانقادت له القلوب.

إنّه ينتمي إلى أولئك العظماء من السلف الصالح، وامتاز عليهم أنّه نقل الفكر من (العِلم) إلى (العين)، من النظريّة إلى التطبيق.. فكانت الأفكار الرفيعة في بطون الكتب، ولكنّ الإمام منحها الحياة على الأرض.

فإذا كان الآخرون قد قسّموا الجهاد إلى قسمين، فإنّه قسّمه إلى ثلاثة أقسام، وإذا كانوا قد قسّموا الهجرة إلى قسمين، فإنّه قد قسّمها إلى ثلاثة.

وكان النصر حليفَه في ميادين الجهاد الثلاثة، والفتح في الهجرات الثلاث.

وعندها هتف: من هنا الطريق.. وهذا هو النهج.. ومن هنا يُمكن بلوغ الهدف!

الآخرون قسّموا الجهاد إلى أصغر وأكبر.. فالأصغر معركة الإنسان مع عدوّه، والأكبر معركته مع نفسه وأهوائه.. معركة في

* من كتابه (العشق الإلهيّ) بتصرّف يسير.

الخارج، ومعركة في الداخل.

أمّا أولئك الذين تخلّقوا بأخلاق الله، فهم الذين انتصروا في جهادهم العظيم، حيث التقوى والورع هو النصر النهائيّ.

الآخرون قسَّموا الهجرة.. هجرتَين (صغرى) و(كبرى)، فالصغرى جهاد أصغر، والكبرى جهاد أكبر.

والهجرة الصغرى هي الانتقال من مكان لا يستطيع الإنسان فيه ممارسة شعائره الدينيّة، إلى مكان آخر يسمح بذلك.. أمّا الهجرة الكبرى، فهي هجرة الإنسان من الشرّ واجتناب الباطل: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ المدثر:٥.

ولكنّ العظماء من أهل المعرفة الذين خلّفوا لنا آثاراً خالدة يطلقون على الجهاد الأكبر (الجهاد الأوسط)، والجهاد الأكبر في حقيقته: الخلاص من (شرور) (العقل).. من أَسْر (الاستدلال).. من مخاطر (البرهان)، والولوج في وادي (العشق).

فالإنسان الذي يبقى في دائرة الفكر والعقل، فإنّه يمارس جهاده الأوسط كإنسان (عاقل) لا كإنسان (عارف) أو (عاشق).. إنّه ما يزال في مِحور الفكر في مدار العقل، وبالرّغم من خلاصه من أنياب الجهل، إلا أنّه لم يستطع بعد ترويض العقل. فالإنسان العادل المتّقي والطيّب هو إنسان في هجرة وسعي، لا في هجرة كبرى.

(الهجرة الكبرى) هي اجتياز مرحلة العدل والتقوى إلى مرتبة أعلى هي (الحُب). والإنسان (المُحِبّ) هو من يَفدي نفسه في طريق المحبوب، ولا يقول أبداً إنّها حرب غير متكافئة.. أو يقول لا يمكن مواجهة الطاغوت بأيدٍ خالية..

فالسالك في دروب الحبّ لا يقول أبداً: كيف لي أن أصرخ وأنا لا أملك شبراً على الأرض؟ ولا يقول أبداً: كيف لي أن أواجه الطاغوت وحيداً؟ فلا بلد يؤويني ولا دولة تسندني؟ **ولذا كان الإمام الخمينيّ يقول: «سأسافر من بحرٍ لبحرٍ، ومن مطارٍ إلى مطارٍ، ومن سفينةٍ إلى سفينةٍ، ولكن سأظلّ أقاوم. الآن وأنا أجد نفسي مضطرّاً إلى ترك جوار مولاي أمير المؤمنين، وأرى يدي مكبّلة في الدولة الإسلاميّة، وأقف على حدود الكويت ممنوعاً من الدخول فأطير إلى فرنسا.. البحث عن مكان ليس همّي.. همّي الوحيد العمل بإرادة الله ومصلحة الإسلام العليا».**

هذه كلمات إنسان (عاشق) تخلَّص من أسار العقل، وهو ماضٍ في طريق الهجرة الكبرى.. وهذا ما فعله سيّد الشهداء وأصحابه من قبل.

وهواجس (الإنسان العاقل) الذي يحيا في أسار الرهان والدليل والبرهان هي أنّه في ظروف ليس فيها ناصر ومعين وعُدّة وعدد، والعدوّ في ذروة قوّته وبطشه؛ لذا فإنّ العمل بالتقيّة واجب، والركون إلى السكوت أفضل من الثورة والغليان.

(الهجرة الكبرى) هي اجتياز مرحلة العدل والتقوى إلى مرتبة أعلى هي (الحُب). والإنسان (المُحبّ) هو من يَفدي نفسه في طريق المحبوب، ولا يقول أبداً إنّها حرب غير متكافئة.. أو يقول لا يمكن مواجهة الطاغوت بأيْد خالية..

فالسالك في دروب الحبّ لا يقول أبداً: كيف لي أن أصرخ وأنا لا أملك شبراً على الأرض؟ ولا يقول أبداً: كيف لي أن أواجه الطاغوت وحيداً؟ فلا بلد يؤويني ولا دولة تسندني؟

أمّا الإنسان الذي اجتاز هذه المرحلة فيقول: لكي نصل إلى مرتبة (العشق)، يتوجّب علينا أن نتخلّص من حِبال (العقل) والفكر؛ أجل لقد اجتاز الجهاد الأوسط، فهو ماضٍ في جهاده الأكبر في طريق (الهجرة الكبرى).

وهؤلاء الذين يظنّون أنفسهم أنّهم في الجهاد الأكبر، هم في رأي الإمام في الجهاد الأوسط.. في هجرة وسفر.

لقد أورد المرحوم الكلينيّ في كتابه رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، عن جدّه رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**أفضل الناس مَن عَشِق العبادة فعانقها وأحبّها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها، فهو لا يُبالي على ما أصبح من الدنيا على عُسرٍ أم على يُسر**».

وهذا هو حديث الإمام الخمينيّ، نجده في تفسيره المُضيء لسورة الحمد.. إنّه يتحدث عن العبادة بصفتها معشوقاً جديراً بالحب.. فأفضل الناس مَن عشق العبادة ووَهب لها قلبه، لا أن يفهم معنى العبادة أو يُقيم عليها الدليل، فهذا حدٌّ وسط، وليس هو الغاية والنهاية.

أن يتحمّل العذابات ويضع روحه فوق كَفيّه، ولا يهمّه القيل والقال، فلن تجد في قلبه غير الله ولن يجد من دونه ملتحداً. لأنّه من دون ذلك، لا يتحمّل الإنسان ولا يستمرّ في طريق المقاومة.

كم بثّوا دعاياتهم ضدّ الإمام بعد مذبحة ٥ حزيران ١٩٦٣؟! كم سطّروا كلماتٍ كالسُّم الزعاف، كما أطلقوا الاتّهامات؟!

إنّه لم يستطع مواجهة كلّ ذلك لولا أنّه كان مشدوهاً بمعشوقه..

مشغولاً بالنظر إليه، مبهوراً بجمال طلعته:

تيَّمني النظر إلى خالٍ على شَفتيك

وعندما التقت عينيك عيناي مرضتُ

(ترجمة بيت شعر للإمام الخمينيّ)

هذا هو طريق (الحبّ) لا طريق (العقل)، وكان الإمام (عاشقاً). الإستشهاديّون هم من خرّيجي مدرسة (العشق الإلهيّ)، مدرسة الإمام الخمينيّ.

لقد طوى الإمام الخمينيّ مراحل الجهاد الثلاث، وهاجر الهجرات الثلاث، وبلغ الغاية التي كان ينشد.

إنّنا نقف اليوم إلى جوار مرقده الطاهر، ونردّد من صميم القلب، ونشهد بكلّ إيمان قائلين: «أشهد أنّك قد أقمتَ الصلاة وآتيتَ الزكاة، وأمرتَ بالمعروف ونهيتَ عن المنكر، وجاهدت في الله حقّ جهاده، حتى أتاك اليقين».

وإذا كنّا تعلّمنا كيف نخاطب الأولياء في مراقدهم بهذه الكلمات، فإنّنا نخاطب الراحل العظيم بعدما رأينا بأمّ أعيننا جهاده الطويل والمرير.

**

والموضوع هنا أنّ هذا الطريق مُمكنٌ طيُّه مع أنّ الله سبحانه أخفى تحقيق وعده وهو القائل: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا..﴾ البقرة:١٠٦، لقد وعدنا ووعدُه الحقّ، ولكن لا أحد يعرف متى؟ في أمدٍ قريب أو بعيد.

وهذا الطريق ليس حكراً على أحدٍ دون آخر. إنّه مفتوح للجميع. مشروع أمام الجميع.

فليس كلّ عالم يموت يحمل معه علمه. إنّ صدمة الموت ستُنسيه علومه، إلّا ما استحال إلى مَلَكة. إلّا ما اتّحد بالروح.

فالموت ليس أمراً هيّناً حتى يمكن للمرء أن يحتفظ بعلومه. لأنّ الموت يعني تحرّر الروح من كلّ ما يُثقلها.

الموت لا يعني موت الروح، فالروح لا تعرف الموت أبداً.

الموت خلاصُ الروح من كلّ ما يُثقلها من الأشياء الغريبة.

الروح تتحرّرُ من الجسد، تتخلّص من الأموال والأولاد. نسيان الذكريات وكلّ الأشياء التي لا تكون مقوّماً للروح.

وقد أشار القرآن إلى حالتين من الموت، الإنسان يشيخ وتضعف قواه الجسميّة، يذوي جسده شيئاً فشيئاً، وكما ورد في سورة يس: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ الآية ٦٨.

وهذا ليس نقصاً للإنسان العالم، لأنّ قانون الشيخوخة يجري على جسد كلّ إنسان، فهذه ظاهرة هامّة شاملة لا يُستثنى منها أحد؛ ولكن هناك ظاهرة أخرى تشير إليها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿..وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا..﴾ الحج:٥.

و(مَن) تُفيد الجزئيّة، فهي موجبة جزئيّة لا موجبة كلّية، فهناك إذن زوال العلم وذهاب كلّ الجهود العلميّة هباءاً منثوراً، وهذا نقصٌ في حياة العلماء.

إنّ علماً يطلبه الإنسان من أجل أن يقال له (عالِم)، وعلماً ينشده المرء من أجل لقب واسم وشهرة، لَهُو علمٌ معرّض للنسيان والزوال. علمٌ لا يمكنه مرافقة الإنسان بعد صدمة الموت، لأنّه لم يُضيء روحه. ولأنّه علمٌ لم يتحوّل إلى نور.

وهذا إمام المتّقين يتحدّث عن صفات المتّقين فيقول: «**إذا زُكّي أحدٌ منهم خاف ممّا يُقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربّي أعلم منّي بنفسي، أللّهمّ لا تُؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل ممّا يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون**».

أمّا الإنسان الذي اجتاز هذه المرحلة فيقول: لكي نصل إلى مرتبة (العشق)، يتوجّب علينا أن نتخلّص من حِبال (العقل) والفكر؛ أجل لقد اجتاز الجهاد الأوسط، فهو ماضٍ في جهاده الأكبر في طريق (الهجرة الكبرى). وهؤلاء الذين يظنّون أنفسهم أنّهم في الجهاد الأكبر، هم في رأي الإمام في الجهاد الأوسط.. في هجرة وسفر.

الثناء والمديح هما بداية الهجوم الشيطانيّ، وإنّ على الإنسان أن يشعر بحالة الخطر إذا ما مُدح أو أُثني عليه، ولذا نجد أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام يُحذِّر صديقه وصاحبه مالكاً الأشتر قائلاً: «**إياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يُعجبك منها وحبّ الإطراء، فإنّ ذلك من أوثق فُرص الشيطان في نفسه، ليَمحقَ ما يكون من إحسان المحسنين**».

فالعالِم الذي يُسعدُه الإطراء، ويُفرحه الثناء على درسه وعلمه، لن يصطحب علمَه معه بعد الموت..ستنطلق الروح وتترك علمه الذي جهد في الحصول عليه. لأنّ الروح لا تأخذ معها إلّا ما ينسجم معها.

شيئاً فشيئاً يشيخ الإنسان، يتقاعد من عمله، ويفقد تدريجيّاً علومه حتى يصبح (نكرة في سياق نفي) كما يقولون. ﴿... لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا..﴾ الحج:٥.

وفي النهاية نجد ذلك الأديب البليغ وهو لا يُحسن تأليف جملة

مفيدة، وقد لا يمكنه أن يقرأ بصورة صحيحة سطراً واحداً..
فما الذي يصون الإنسان وهو يسلك طريق الجهاد، ودروب الهجرة؟ ما الذي يُنقذه من خطر الشيطان وأحابيله؟ سوى (الرقابة) الدائمة (والحساب) المستمرّ.
يقول الإمام الخمينيّ في تفسير سورة الحمد: «الشباب أفضل من الكهول، في استطاعتهم إنقاذ أنفسهم.. إنّ علينا أن نسعى في طرد الخواطر التي تشدّنا إليها، لأنّ هذه الخواطر هي مصداق الحديث الشريف: «**فإنّما مثل الدنيا مثل الحيّة ليّنٌ مسُّها وقاتلٌ سمُّها**».
ومن إبداعات الإمام الكبير هو تفسيره (الدنيا) عندما يعتبر أنّ الدنيا هي أنفسنا، والإنسان السّيئ هو الدنيا، وإلّا فإنّ السماء والأرض.. الجبال والشجر والصحراء والبحر ليست هي الدنيا، بل إنّها (آيات الله) وقد ذكرها الله سبحانه بتكريم.
إنّ الله سبحانه لم يذكر السماء بسوءٍ أبداً، ولم يقلّل من شأن قبّتها المُرصّعة بالنجوم، كما لم يذكر الأرض بكلّ ما فيها مثل ذلك.
وما الدنيا سوى تلك (العناوين الاعتباريّة) التي تشغل الإنسان الشرّير، فيستغرق فيها.
إنّها مجموع الأنانيّات التي تُحيل الدنيا إلى جحيم، فيصبح الإنسان أحياناً حطباً في تلك النار: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ الجن:١٥.
وإلاّ فابحثوا عن الدنيا، إنّكم لن تجدوها في طُرق السماء ولا في مجاهل الأرض.. لن تجدوا سوى آيات الله.. لن تجدوا سوى مخلوقات تُسبّح لله، وقد خُلقت من أجلنا.
ومن هنا، فإنّ الدنيا إنّما هي العناوين الاعتباريّة التي تنطوي عليها ذواتنا، والتي يُمكن الخلاص منها متى أردنا؛ فالخلاص منها ومن شرورها أمرٌ ممكن، والطريق إلى ذلك مفتوحٌ مُشرَّعٌ ميسّرٌ لِمَن سلك.
إنّ علينا أن نراقب أنفسنا.. نحاسب ذواتنا، وحتّى نبدأ الهجرة ينبغي لنا أن نميّز بين الخير والشرّ، بين الحلال والحرام، لأنّ الإنسان الذي لا يعرف أحكام الحلال والحرام لن يكتشف القُبح، ولن يعرف الجمال. وعندما يعرف الإنسان قضايا الإسلام، ومسائل الحلال والحرام، عندها يدرك كيف تنخدع النفس.

إنّ علماً يطلبه الإنسان من أجل أن يقال له (عالم)، وعلماً ينشده المرء من أجل لقب واسم وشهرة، لَهُو علمٌ معرّض للنسيان والزوال. علمٌ لا يمكنه مرافقة الإنسان بعد صدمة الموت، لأنّه لم يُضئ روحه. ولأنّه علمٌ لم يتحوّل إلى نور. وهذا إمام المتّقين يتحدّث عن صفات المتّقين فيقول: «إذا زُكّي أحدٌ منهم خاف ممّا يُقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربّي أعلم منّي بنفسي، اللّهمّ لا تُؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل ممّا يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون».

فالنفس لا تصبح فجأة (أمّارة بالسوء)... إنّها تنحدر شيئاً فشيئاً.. وكذا السير التكامليّ وارتقاء الدرجات العُلى.. لا يصبح الإنسان في البدء (نفساً مطمئنّة)، بل إنّ بلوغ هذه المرتبة يلزمه برنامج من التهذيب والتزكية، ويتوجّب اجتياز مراحل عديدة حتى يصل هذه المرحلة.
والسقوط أيضاً انحدار في درجات، حتى يبلغ الإنسان حضيض النفس (الأمّارة بالسوء)، فتأمره نفسه إلى عمل قبيح فيضيع.. وهو (التسويل) الذي يشير إليه القرآن الكريم.
نرى مثال ذلك في قصة السامريّ الذي اعترف قائلاً: ﴿..سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ طه:٩٦.
وما نراه في اتّهام يعقوب أبناءه حول مصير يوسف: ﴿..بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا..﴾ يوسف:١٨.
فالنفس (المُسوِّلة) شيطانٌ في الأعماق لا ينفكّ عنّا، إنّه عالم نفسانيّ وثيق الصلة بطبيعتنا.. يعرف تطلّعاتنا جيداً ويعرف أيضاً هواجسنا، ولذا فهو يصوّر لنا الشرور في حلّة برّاقة، وعندها يقدم المرء على تجرّع السمّ وهو يحسبه عسلاً.
فالنفس المسوِّلة كالشيطان، لا تغتال الإنسان وتقضي على حياته، لأنّ الشيطان لو أقدم على قتل الإنسان لارتاح المرء.. لأنّه وإنْ لم يشعر باللّذة كذلك لن يشعر بالألم، فالشيطان عدوّ، ولكنّه ليس من همّه قتل الإنسان، بل إنّ كلَّ شيطنته تستهدف أسرَ الإنسان، ومن ثمّ تسخيره، فيعمل كلَّ ما يُملي عليه، ويصنع كلَّ ما يأمره به.
وهذا ما يقصده الإمام عليّ عليه السلام في قوله: «**وكم من عقلٍ أسيرٍ تحت هوى أمير**».
وما أكثر العقول التي أُسرت في طريق الجهاد.. أَسرَها الهوى.
الإنسان أسير مهما فكَّر بعقل، وتأمّل في فكر؛ لأنّ حاصل تفكيره وتأمّله سيكون تحت تصرّف الهوى. لأنّ العقل أسيرٌ تابعٌ لهوىً أمير.
إنّنا نشاهد حركة العلم وتقدّمه، وفي ميدان صناعة أسلحة الدمار.. العلماء أبرياء ولكن الساسة اللاّعبون، هؤلاء المفترسون الذين لا يتورّعون عن ارتكاب الجرائم، إنهم يفكرون جيّداً ولكن هذا الفكر هو (أسيرُ هوىً أمير..).

فالشيطان يسعى من أجل أن تكون له حاكميّة على الإنسان.. إنّه يريد أسر الإنسان وتوجيه ثقافته بالاتجاه الذي يشاء.

ومن هنا، فإنّ النفس المُسوّلة تخدّر الإنسان.. تَزُقُّه سمومَها التي لا تقتل، بل إنّها سموم مخدّرة. ولذا جاء على لسان الأنبياء: ﴿..بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا..﴾ يوسف:١٨.

أي يصل المرء مرحلة يرى فيها القبحَ جمالاً، والجميلَ قبيحاً، وعندما يرى الإنسان السيّئات في صورة حسنات، ثمّ يرتكبها، يعني أنّه تشرّب هذه السموم فهو مخدَّر ومُدمِن، وعندما يكون قد أدمن الذنوب، يصبح نفساً (أمّارة بالسوء)، ويصبح الإنسان تابعاً ذليلاً لها، تأمره فيُطيع، وقد يتنبّه بعد أن يرتكب الكبائر ولكنّه قد أصبح مدمناً، والمُدمن كالأسير الذي لا يملك إرادة، فهو تابعٌ ذليل.

وعندما يهوي الإنسان ويصل في سقوطه إلى مرحلة النفس الأمّارة بالسوء، فإنّه قبل ذلك قد اجتاز مرحلة النفس المُسوِّلة.

وإذا أردنا أن نتجنّب السقوط في فخّ النفس المسوّلة، علينا أن ننتبه ونكون على أُهبة الاستعداد والحذر.. فإذا قرّرنا عملاً ما، فإنّنا ندرس خطواتنا لنرى هل هناك هدف غير إلهيّ؟ فإذا أحسسنا أنّ هناك غاية ليست لله، فَلْنَنصرف عن ذلك.. ومثالاً على ذلك إذا أردنا عمل خير، ثمّ رأينا شخصاً آخر يبادر إلى عمل ذلك الخير، فينبغي أن نشكر الله لأنّ نيّتنا عمله، وقد تحقّق ذلك العمل، ونحن شركاء في ثوابه.

ولكن لو قُلنا: وما كان عيبُنا حتى لم نفعل ذلك؟ إنّ هذه الهواجس هي بداية الطريق في السقوط في شِراك وتسويل النفس.

إنّه ليس من السهل الخلاص من أحابيل الشيطان، لأنّ الإنسان إذا نجا من تسويل النفس، فإنّ عقله سيكون هو الأمير على نفسه، وتصبح المعادلة: «**وكم من عقلٍ أسير تحت هوىً أمير**»، بهذا الشكل: «وكم من هوىً أسير تحت عقل أمير».

وقد جاء في رسالة للإمام عليّ عليه السلام قوله: «**وإنّما هي نفسي أروّضها بالتقوى**».

وكما نرى، يقوم الإنسان بتربية بدنه لتُصبح عضلاته قويّة، فإنّ الإمام عليّ عليه السلام يأمرنا بتربية أنفسنا بالتقوى، لتتعلّم طاعة العقل، ولا تعرف غير إطاعته.

ومثل هذا الإنسان يعيش (عالِماً)، ويهرم (عالِماً)، ويموت (عالِماً)، ويُبعث يوم القيامة(عالِماً).

ومن هنا جاء في الروايات: «**يُقال للعالِم: قف، اشفع تُشفَّع**».

إنّ هذا الحديث لا يشمل كلّ من حصّل العلوم وكلّ من درس وحفظ العلوم.. إنّ عدداً ضئيلاً يبعثهم الله يوم الحشر (فقهاء)، كما جاء في الحديث «**بعثه الله يوم القيامة عالِماً فقيهاً**».

ويعبِّر القرآن عن هذه بالمجيء: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا..﴾ الأنعام:١٦٠. فالملاك إذن فعل الحسنات، والحسنات لا تتحقق إلّا في ظلال (الإخلاص) وخلوص النيّة، وعندها يكون ثوابه ﴿..فَلَه عشر أمثالها..﴾ أو ﴿..فَلَه خير منها..﴾.

إنّ الله سبحانه لم يَعِد كلّ من فعل حسنة أن يحصل على عشر أمثالها، فقد يعمل أحدهم خيراً ولكن حياته تنتهي بالشرّ وسوء العاقبة. ولو أنّ إنساناً انطوى على هذه الخصلة، فإنه يُحشر يوم القيامة (عالِماً)، ويكون له حق الشفاعة، وكما أنّه يشفع للناس في الدنيا، ويَحول بينهم وبين الانحراف، فإنّه يشفع لهم يوم القيامة.

أن يتحمّل العذابات ويضع روحه فوق كَفيّه، ولا يهمّه القيل والقال، فلن تجد في قلبه غير الله ولن يجد من دونه ملتحداً. لأنّه من دون ذلك، لا يتحمّل الإنسان ولا يستمرّ في طريق المقاومة.

ولقد كان الإمام الخمينيّ رضوان الله عليه من النوادر الذين بلغوا هذه المرتبة.. لأنه كان لديه (إخلاص في العمل)، وهو الذي سعى في طيّ الهجرات الثلاث وسلوك مراحل الجهاد الثلاث. وهو الذي دعا إلى ترك توصيات العقل وحساباته العاديّة، ومعادلاته الرياضيّة؛ دعا إلى ذلك بعمله وفعله، لقد نجا من شرور (العقل) وبلغ مرحلة (الحبّ) واقتدى في طريق السالكين بدرب المحبّة، على خطى سيّد الشهداء الحسين بن عليّ عليه السلام.

وعصارةُ البحث: يستطيع الإنسان في ظلّ المحاسبة والمراقبة والحذر والخلاص من شرور النفس الأمّارة بالسوء والمُسوّلة، أن يجعل من عقله حاكماً على نفسه.

ومثل هذا الإنسان قادر من خلال الإخلاص والإيثار والتضحية على الخلاص من فخّ العقل أيضاً.. يصل إلى منزلة (العشق) الرفيعة وإلى منطلق المحبّة، ليصبح (العشق) حاكماً على (العقل) وأميراً عليه.. ومن أجل طيّ هذا المسار الطويل، فإنّه لا يكون قد طوى الهجرات الثلاث، بل وأتمّ مراحل الجهاد الثلاث، وسيكون من نصيبه حينئذٍ إحياء الإسلام المحمّديّ الأصيل.

وهو ما نسأله من الله سبحانه في ليالي شهر رمضان المباركة عندما ندعوه قائلين: «**أللّهمّ إنّي أسألك أن تجعلني ممّن تنتصر به لدينك ولا تستبدل بي غيري**».

وفي عصرنا اليوم، فاز الإمام الراحل بهذا الفيض الإلهيّ.

الإحياء والتَّجديد
عند الشهيد الشيخ مرتضى مطهّري

د. خنجر حمية

يتناول النصّ التالي رؤية العلّامة الشهيد الشيخ مرتضى مطهّري لمفهوم الإحياء والتجديد في التراث الإسلامي، وقراءته للاجتهاد وضرورته، وللسّمات الواجب توفّرها في الفقيه المجتهد المتصدّي لتبيان مقاصد الشارع المقدّس.

ليس الإحياء بحسب الشيخ الشهيد مرتضى مُطهّري استعادة جامدة لتراث الإسلام المتراكم في مدى عُقود، ولا التقليد الأعمى لتجربة السلف في الفكر وفي العمل، ولا هو استرجاع مكْرور لأحكامه وتعاليمه الّتي تمّ تقنينُها في مجاميع كانت تؤصّل على الوقائع الماضية وتُنزَّل على أحداث زمانها. مثل هذا الإحياء هو جُمود أو ما يشبهه، وتحجّر وتقوقع وانزواء واعتزال، وهو ابتعاد عن الحياة وركون إلى الاستكانة، ومثله لا يقود إلى نُهوض ولا يُنتج تقدّماً ولا رقيّاً، وهو ليس قابلاً لأن يكون ركيزة لعودة الإسلام حيّاً فعّالاً في نفوس بنيه. ذلك أنّ الزمن تغيّر، وتبدّلت متطلّباته ومقتضياته، وهو يُلحّ على بَنيه بأسئلة ضاغطة، ويفرض عليهم أوضاعاً معقّدة وظروفاً مستجدّة حادثة، تستدعي إعادة تبصُّره على ضوئها، ووعيه مستجيباً لها، ناظراً إليها، مُجيباً على ما تُحرّكه من هواجس واستفسارات، وإعادة فهمه منسجماً مع حراكها وسيرورتها وتدفّقها. والإسلام حسب مُطهّري مرنٌ غاية المرونة، مع ثباتٍ في مبادئه وأصوله وتشريعاته، متحرِّكٌ غاية الحركة، مع استقرار في قوانينه وقواعده وأُسسه، يستجيب لدواعي الزمان ونوازله في سِعة أفق ووضوح رُؤية وشمول منهج.

ثمّة إذن عاملان يحكمان فعل الإحياء، أو يستوجبانهما:

الأوّل: الإيمان بفاعليّة الإسلام وطاقاته على الاستجابة لكلّ طارئ، ومرونة تشريعاته ومبادئه، الّتي تكفل له مواكبة المستجدات.

والثاني: الإيمان بالتغيّر الّذي يَطال المجتمعات، والتبدّل والتعقيد اللّذان يُصيبان أوضاعهما، وبالمتطلبات الحادثة الّتي تفرض إيقاعها على المجتمع والإنسان. والإخلال بواحدٍ من هذين المبدأين يُخلّ بحركة الإحياء نفسها ويُفرغها من مضمونها، ويقضي على المرجوّ منها. بل يقود إلى ضدّه، وينقلب إلى نقيضه. فلا نجاح للإحياء إلّا بقيام هاتين القناعتين وترسّخهما. ولأنَّ كثيراً من أولئك الّذين حملوا لواء المعارف الإسلاميّة، وتفرّغوا لاستيعابها وفهمها والاختصاص بها، وتمرّسوا بمضامينها، كانوا يفتقدون واحداً منهما، بمعنى أنهم كانوا يعتقدون بأنَّ الإسلام ثابتٌ لا يتغيّر لا في مضمونه، ولا في آليّات تطبيقه، ولا في وسائل فهمه، أو اعتقدوا بأنّ الزمن هو الزمن الّذي لا تغيّر فيه ولا تبدّل، ولا حركة ولا سيرورة، وأنَّ أحداثه الحاضرة هي تكرار متتابع لأحداثه الماضية، فإنّهم لم يستطيعوا أن يساهموا مساهمة حيّة فاعلة في إحياء بعث الإسلام في الرّاهن، وبثّ مفاهيمه في وعي الناس، وإدخال تعاليمه في صميم الحياة وفي حراك المجتمع، وجَعْلِه أساساً يبنون عليه مصيرهم، ويُحدِّدون من خلاله صورة مستقبلهم، ويقيمون عليه طموحاتهم.

ولأنَّ مُطَهّري يؤمن بهاتين القناعتين، فإنّه اندفع من جهة في الدفاع عن قابليّة الإسلام للتجدُّد بتجدُّد الزمان، وفي تأكيد مبدأ السيرورة والتغيّر في الاجتماع والتاريخ، مقيماً ذلك على تأكيد مبدأ الاجتهاد كوسيلة للفهم والتّبصّر والوعي، وإعادة التعمّق في دلالات الشريعة وآفاقها وأبعادها ضمن ثوابتها الراسخة وركائزها الكليّة وقوانينها العامّة الشاملة، وكمبدأ يقوم بوظيفتين: **الأولى**، إعادة اكتشاف ما لم يُكتشف، أو استثمار ما لم يُستثمر، أو الانتفاع بما لم يُنتفع به من تقاليد الإسلام المعرفيّة والقانونيّة. **والثانية**، تقويم ممارسة الفهم والاستيعاب وتطوير أدواتهما وآليّاتهما والمناهج التي تحكمهما وتوجِّههما على ضوء تطوّر المعرفة البشريّة بآليّات الفهم والاستيعاب، وتفتّح قدرات العقل على وسائل تبصُّر وتأمّل لم يكن يملك الماضون مفاتيحها، ولا وعي فوائدها، ولا طبيعة نتائجها وآثارها، ولا وظائفها وما تؤدّيه وتنجزه.

* أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية

الاجتهاد وضرورته

والإسلام نفسه - حسب مُطَهّري - فتح الأُفق باتّجاه ذلك وأرشد إليه وبصَّر به، حين أطلق العنان لطاقات الاجتهاد والتأمّل والنظر، ورغّب، بل حثَّ، على البحث الدائم عن ما يحتويه النصّ الدينيّ من أبعاد ودلالات كامنة ومُستترة، لا تكشف عن نفسها إلّا على ضوء فعل متعقّل متبصّر، يتوسّل كلّ آلة ويستعمل كلّ وسيلة ويلجأ إلى كلّ طريقة تكفلها عموميّات الشريعة وتؤكّد عليها، في نصوصها تارةً ومن خلال مقاصدها الكليّة تارةً أخرى. ولقد صنع ذلك أسلافنا حين كانوا في أوج ازدهارهم، وفي أعلى مراتب مدنيّتهم، غير متهيّبين ولا مرتابين، وواثقين من قدرة الإسلام على استيعاب تراث الأمم وإنجازاتها في العلم والمعرفة، ناقدين مُنتفعين، ومؤسّسين متجاوزين.

فالاجتهاد إذن – حسب مُطَهّري – هو آلة الإحياء التي تسمح للإنسان أن يُعيد مَوْضَعة الدين، في جملة ما ينطوي عليه، في مسار الحياة، ويجذبه إلى حركتها، ويحرّكه باتجاهها، ويدفعه في خضمّ مساراتها، صعوداً وهبوطاً، ارتفاعاً أو انخفاضاً، تراجعاً أو تقدّماً، وهو الذي يُعيد إلى الإسلام ومفاهيمه بريقهما المتجدِّد، وقدرتهما على الاستجابة الراسخة والفاعلة لوقائع العالم والتاريخ. ولأجل ذلك عُرِّف الاجتهاد بأنّه رؤية عميقة في أمور الدين، ونظر متبصّر في شريعته، واستلهام دؤوب مُتأنٍّ لقوانينه. أو هو بذل الوسع والطاقة والجهد لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلّتها التفصيلية التي هي القرآن والسنّة.

والاجتهاد هذا حسب مُطَهّري نوعان: **مذموم**، وهو الاجتهاد المتحرِّر الذي يطلق العنان للفكر بلا سند يعضده أو دليل يؤيّده أو حُجّة تدعمه، من كتاب أو سنّة أو عقل بديهيّ، **ومحمود** وهو الذي يؤسّس لخطواته على ما ذكرناه من ركائز وأُسس. ويقابله تقليدان، واحد مذموم وآخر ممدوح، والأوّل، هو التقليد الأعمى من غير بصيرة أو تدبّر، أو التسليم المطلَق من غير وعي، اتّباعاً للمحيط أو العادات أو التقاليد، أو للراسخ من المعتقدات والرُّؤى والتصوّرات، ولقد ذمّه القرآن في مواطن كثيرة منها قوله تعالى: ﴿..إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ الزخرف:٢٣.

أمّا المحمود فهو الذي يجسّد رجوع الجاهل بالشريعة إلى العالِم بها مقروناً بوعيٍ لمضامينه ولمآلاته ولمنافعه. هذا بالنسبة لما يتّصل بالاجتهاد نفسه – بما هو فعل تبصُّر – وبشرط مشروعيّته.

أمّا في ما يتّصل بالمجتهد، فيفترض مُطَهّري أنّه شخصٌ ينبغي أن يملك الأهليّة الكافية للنظر في الإسلام، في عقيدته وشريعته، والقدرة الراسخة على استيعاب مضامينه، والممارسة الحيّة لاستنطاق أبعاده، ومعرفة واسعة بعلوم الإسلام، وبما أنتجه مفكّروه وفقهاؤه. وأن يجمع إلى ذلك إدراكاً واضحاً لمشكلات المجتمع وإحاطة بأبعاد أسئلته وتبصُّراً حميماً بحراكه؛ لأنّ مثل هذه الأمور تنعكس في طبيعة رؤيته للإسلام وفهمه له؛ إذ فرقٌ كبيرٌ بين فقيه – مثلاً – لا يعرف من عالمه ومجريات أحداثه إلاّ القليل، وفقيهٍ بصير بها، خبيرٍ بتجارب الأمم، مُطّلع على ثقافات الشعوب وتقاليدها، وتيّارات الفكر والمعرفة التي يضطرب بها أُفق العالم من حوله، مع أنّ كليهما يحاول استخراج الأحكام من أدلّتها، ويُمارس عمليّة فهمٍ لمضامينها، ويجتهد في ذلك غاية اجتهاده، ويبذل طاقته ووسعه.

> **أطلق الإسلام العنان لطاقات الاجتهاد والتأمّل والنظر، ورغَّب، بل حثَّ، على البحث الدائم عن ما يحتويه النصّ الدينيّ من أبعاد ودلالات كامنة**

فالمنظورات الفكريّة لكلّ فقيه ورؤيته للعالم وفهمه لأحداثه تؤثّر في وجهات نظره، وكثير من موضوعات الأحكام التي يؤثّر استيعابها وفهمها في عمل الفقيه متجدّدة ومتغيّرة، وقد لا تجد لها في الكتاب والسنّة نصّاً صريحاً يُحدّد حكمها، ممّا يدفع الفقيه إلى تحديده عبر تلمُّسه القوانين العامّة للتشريع، والمبادئ الكليّة التي يقوم عليها، والمقاصد الشاملة التي تُحرّكه. فمثل هذه الموضوعات إن لم تُعلم ولم يُحط بأبعادها، ولم تُدرك تغيّراتها التي تطرأ عليها وتصيبها، فكيف يتسنّى للفقيه حينها أن يحدّد حكمها الشرعيّ، أو أن يبيّن موقف الدين منها إيجاباً أو سلباً؟

ويقترح مُطَهّري من أجل تسهيل الأمور على الفقهاء، وإطلاق العنان لفعل اجتهاد عصريّ وفاعل... أن يُقسَّم التشريع إلى أقسام متعدّدة متخصّصة، ويُعْهَد إلى كلّ فقيه يملك أهليّة الاجتهاد ويحيط بأبعاد الشريعة في كلّ جوانبها، أن ينعطف على مجالٍ من مجالاتها متفرّغاً له، متخصّصاً فيه، متبحّراً في تفاصيله... فتكون الآثار التي يُنتجها مثل هذا التوزيع للطاقات أكثر نفعاً وأعظم أثراً، ويَسمح للفقه أن يُحيط بكلّ المستجدّات، ويساعده على أن يتكامل وينمو ليواكب ما يطرأ من أحداث ووقائع، ويجعله أكثر مسايرة للنوازل، ويسمح بالإبداع والابتكار والتجديد.